

المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعاً، حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا أنهم على شيء، لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة، لم تنزل ترسخ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء يعتد به، ويعلق عليه الشواب، وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة، وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم، وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين، الذي لا يريد بهم إلا الشر، وإنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ الذين خسروا دينهم وديناهم وأنفسهم وأهلهم.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿إن السذيين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذنين﴾ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴿هذا وعد ووعد، وعيد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي، أنه مخذول منذلول، لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصوره.

ووعد لمن آمن به وبرسله، واتبع ما جاء به المرسلون، فصار من حزب الله المفلحين، أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يخلف ولا يُغَيَّر، فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريده.

﴿٢٢﴾ ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا

عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ يقول تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على مقتضى الإيمان^(١) ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي: رسمه وثبته وغرسه غرساً، لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك.

وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بروحيه ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهي النفس وتلد الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربه بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية^(٢).

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مُؤَادٍ لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان^(٣) وراء ظهره، فإن هذا إيمان زعيمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها.

تم تفسير قد سمع الله، بحمد الله وعونه وتسديده، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً



تفسير سورة الحشر [وهي] مدنية

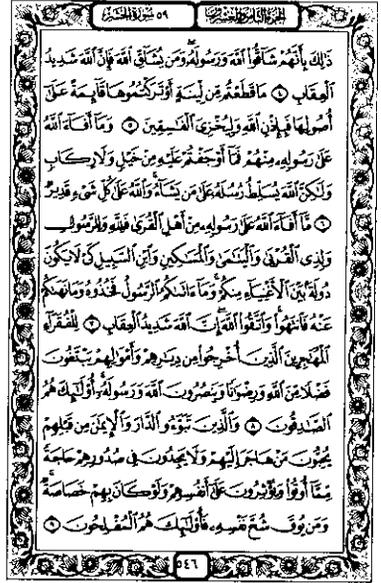
﴿١-٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ إلى آخر الفصه.

هذه السورة تسمى «سورة بني النضير» وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة، وقت بعثة النبي ﷺ، فلما بعث النبي ﷺ، وهاجر إلى المدينة، كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد [وقعة] بدر بستة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعنا يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك، فخلا بعضهم ببعض،

(٣) في ب: لمن نبد.

(٢) في ب: ولا وراه.

(١) في ب: إيمانه.



وسؤل لهم الشيطان الذي كتب عليهم، فأتاموا ويقتله ﷺ، وقالوا: أياكم يأخذ هذه الرحي فيصعد فليقيها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما همتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، وجاء الرحي على الفور إليه من ربه بما هو به، فنهض مسرعاً، فتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم تشعر بك، فأخبرهم بما همتم به. وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن اخرجوا من المدينة ولا تسكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه».

فأقاموا أياماً يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي [بن سلول]: «أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصرم قريظة وحلفاؤكم من غطفان».

وطعم رئيسهم حبي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدالك.

فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه،

ونهبوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء.

فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذرايعهم، وأن لهم ما حملت إيلهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يحمسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجب المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلاهم إلى خيبر وفيهم حبي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً، هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير.

فاقتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السماوات والأرض تسبح بحمدها، وتترهه عما لا يليق بجلاله، وتعبدته وتحضع لجلاله^(١)، لأنه العزيز الذي قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه مستعصي^(٢)، الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته، ومن ذلك نصر الله لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غدروا برسوله، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي آلفوها وأحبوها.

وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يدرسوله محمد ﷺ، فجلجوا إلى خيبر، ودلت الآية الكريمة أن لهم حشراً وجلاء غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ

من خيبر، ثم عمر رضي الله عنه، [أخرج بقيتهم منها].

﴿ما ظننتم﴾ أيها المسلمون ﴿أن يخرجوا﴾ من ديارهم، لحصانتها ومنعتها وعزمهم فيها.

﴿وظنوا أنهم ما منعتمهم حصونهم من الله﴾ فأعجبوا بها وغرهم، وحسبوا أنهم لا يُنالون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقدر الله تعالى وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تجدي فيهم القوة والدفاع.

ولهذا قال: ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ أي: من الأمر والباب، الذي لم^(٣) يخطر ببالهم أن يؤتوا منه، وهو أنه تعالى ﴿كذب في قلوبهم الرعب﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عُدَّة ولا عُدَّة، ولا قوة ولا شدة، فالأمر الذي يجتنبونه ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله فهو عليه وبال^(٤)، فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم، التي هي محل الثبات والصبير، أو الخور والضعف، فآزال الله قوتها وشدتها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً، لا حيلة لهم ولا منعة معه^(٥)، فصار ذلك عوناً عليهم، ولهذا قال: ﴿يخربون بيومهم بأيديهم وأيادي المؤمنين﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل.

فنقضوا لذلك كثيراً من سقوفهم التي استحسوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيتهم على إخراجهم وهدم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم، وصاروا من أكبر عون عليها، ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ أي: البصائر النافذة، والعقول الكاملة، فإن في هذا معتبراً يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم

(٥) في ب: لا حيلة لهم في دفعه فصار.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لا.

(٤) في ب: كان وبالأعلى عليه.

(١) في ب: لعظمته.

(٢) في ب: عسير.



في^(١) قوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾.

فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام: خمس لله وللرسول بصرف في مصالح المسلمين [العامه]، وخمس لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، حيث كانوا يُسَوَّى [فيه] بين ذكورهم وإناثهم، وإنما دخل بنو المطلب في خمس الخمس مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب، حين تعاقدت قريش على هجرهم وعداوتهم^(٢)، فنصروا رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي ﷺ في بني عبد المطلب: «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام».

وخمس لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له ولم يبلغ، وخمس للمساكين، وسهم لأبناء السبيل، وهم الغرباء

سلطكم على قطع نخيلهم وتخريبها، ليكون ذلك نكالا لهم، وخزياً في الدنيا، وذلاً يعرف به عجزهم الشام، الذي ما قدروا على استنقاذ نخيلهم الذي هو مادة قوتهم. واللينة: اسم يشمل سائر النخيل على أصح الاحتمالات وأولها، فهذه حال بني النضير، وكيف عاقبهم الله في الدنيا، ثم ذكر من انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهم، فقال: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾ أي: من أهل هذه القرية، وهم بنو النضير.

﴿ف﴾ إنكم يا معشر المسلمين ﴿ما أوجفتم﴾ أي: أجلبتكم وأسرعتم وحشدتكم، ﴿عليه من خيل ولا ركاب﴾ أي: لم تتبعوا بتحصيلها، لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف الله في قلوبهم الرعب، فأتتكم صفواً عفواً، ولهذا قال: ﴿ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ من تمام قدرته أنه لا يمتنع منه^(٣) تمتنع، ولا يتعزز من دونه قوياً. وتعريف الفيء في اصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق، من غير قتال، كهذا المال الذي قُرُوا وتركوه خوفاً من المسلمين، وسمي فيثاً، لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له، إلى المسلمين الذي لهم الحق الأوفر فيه، وحكمه العام، كما ذكره الله في قوله: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ عموماً، سواء أفاء الله في وقت رسوله أو بعده، لمن يتولى من بعده أمته^(٤).

﴿فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال،

عزتهم، ولا منعتهم قوتهم، ولا حصنتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله، ووصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم اللفظ^(٥) لا بخصوص السبب، فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظير بنظيره، وقياس الشيء على مثله، والتفكير فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل والفكرة، وبذلك يزداد^(٦) العقل، وتنور البصيرة ويزداد الإيمان، ويحصل الفهم الحقيقي، ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لم يصيبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم، فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم - وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي - فإن لهم في الآخرة عذاب النار، الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله تعالى، فلا يخطر بالبالهم أن عقوبتهم قد انقضت وفرغت ولم يبق لهم منها بقية، فما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأطم، وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله وعادوهما وحادبوهما وسعوا في معصيتهما، وهذه عادته وسنته فيمن شاقه ﴿ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾.

ولما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذلك من الفساد، وتوصلوا بذلك^(٧) إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أن قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إياه إن أبقوه، إنه بإذنه تعالى وأمره ﴿وليخزي الفاسقين﴾ حيث

(١) في ب: العبرة بعموم المعنى.

(٢) في ب: يكمل العقل.

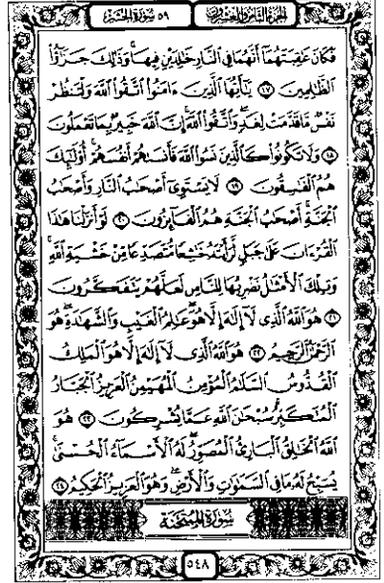
(٣) كذا في ب، وفي أ: به.

(٤) في ب: عليه.

(٥) في ب: سواء كان في وقت الرسول أو بعده على من تولى من بعده من أمته.

(٦) في ب: وهي.

(٧) كذا في ب، وفي أ: حين تعاقدت على هجرهم قريش وعداوتهم.



المقطع بهم في غير أوطانهم.

وإنما قدر الله هذا التقدير، وحصر
الفيء في هؤلاء العيين لـ ﴿كفي
لا يكون دولة﴾ أي: مداولة
واختصاصاً ﴿بين الأغنياء منكم﴾ فإنه
لولا يقدره، لتداولته الأغنياء الأقرباء،
ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه
شيء، وفي ذلك من الفساد ما
لا يعلمه إلا الله، كما أن في اتباع
أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل
تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة
الكلية والأصل العام، فقال: ﴿وما
أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه
فانتهوا﴾ وهذا شامل لأصول الدين
وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء
به الرسول يتعين على العباد الأخذ به
وابتاعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص
الرسول على حكم الشيء كنص الله
تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له
في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد
على قوله، ثم أمر بتقواه التي بها عمارة
القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة]،
وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم،
وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب
السرمدى، فقال: ﴿واقفوا الله إن الله
شديد العقاب﴾ على من ترك التقوى،
وآثر اتباع الهوى.

﴿٨﴾ ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب

الموجب لجعله تعالى الأموال أموال

الفيء لمن قدرها له، وأنهم حقيقون
بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم،
وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا
المحبيات والمألوفات، من الديار
والأوطان والأحباب والخيلان
والأموال، رغبة في الله ونصرة
لدين الله، ومحبة لرسول الله، فهؤلاء
هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى
إيمانهم، وصدقوا بإيمانهم بأعمالهم
الصالحة والعبادات الشاقة، بخلاف من
ادعى الإيمان وهو لم يصدق بالجهاد
والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين
أنصار وهم الأوس والخزرج الذين
آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة
واختياراً، وآووا رسول الله ﷺ،
ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوؤوا
دار الهجرة والإيمان حتى صارت
موثلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون،
ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه
المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان
حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار
الدين تأوي إلى الأنصار، حتى انتشر
الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئاً
فشيئاً، وينمو قليلاً قليلاً، حتى فتحوا
القلوب بالعلم والإيمان والقرآن،
والبلدان بالسيف والسنان.

الذين من جملة أوصافهم الجميلة
أنهم ﴿محبون من هاجر إليهم﴾ وهذا
لمحبتهم لله ولرسوله، أحبوا أحبائه،
وأحبوا من نصر دينه.

﴿ولا يجردون في صدورهم حاجة
مما أوتوا﴾ أي: لا يجردون المهاجرين
على ما آتاهم الله من فضله وخصم به
من الفضائل والمناقب التي هم أهلها،
وهذا يدل على سلامة صدورهم،
وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها.

ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل
من الأنصار، لأن الله قدمهم بالذكر،
وأخبر أن الأنصار لا يجردون في
صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على
أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار
ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة

والهجرة.

وقوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو
كان بهم خصاصة﴾ أي: ومن أوصاف
الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا
بها على من سواهم، الإيثار، وهو
أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار
بمحاب النفس من الأموال وغيرها،
وبذلك للغير مع الحاجة إليها، بل مع
الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون
إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى
مقدمة على محبة شهوات النفس
ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري
الذي نزلت الآية بسببه، حين أثر ضيفه
بطعامه وطعام أهله وأولاده وياتوا
جياً، والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار
محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من
خصال البخل والشح، ومن رُزق
الإيثار فقد وُقي شح نفسه ﴿ومن يُوق
شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾
ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها
الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وُقي
العبد شح نفسه، سمحت نفسه
بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً
منقاداً، منشرحاً بها صدره، وسمحت
نفسه بترك ما نهى الله عنه، وإن كان
محبوباً للنفس، تدعو إليه وتطلع إليه،
وسمحت نفسه ببذل الأموال في
سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك
يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم
يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير،
الذي هو أصل الشر ومادته، فهذان^(١)
الصنفان الفاضلان الزكيان هم
الصحاب الكرام والأئمة الأعلام،
الذين حازوا من السوابق والفضائل
والمناقب ما سبقوا به من بعدهم،
وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان
المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات
المؤمنين^(٢).

وحسب من بعدهم من الفضل أن
يسير خلفهم، ويأتهم بهداهم، ولهذا
ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم
وسائر خلفهم فقال: ﴿والذين جاؤوا
من بعدهم﴾ أي: من بعد المهاجرين

(٢) كذا في ب، وفي أ: المؤمنين.

(١) كذا في ب، وفي أ: فهؤلاء.